النجمة العالية ..

– بابا . . ! اين هي النجمة ؟؟

– انها لا تظهر للعيان من هنا ، ياحملي الصغير .

– ولماذا لا تظهر للعيان ، يابابا !؟

– يابني ، ان السماء تشوبها الكدرة ، و . .

– ولم تشوب السماء الكدرة !؟

– ام مم . . . لان . . هذه المدينة كبيرة ، وفيها نفط كثير . . وحين يشعلون فيه النار ، يتحول الى دخان و . . يسد على النجوم افاق الرؤية . . . عندما نعود الى (نبع الحوريات)[1] . نتسلق – سوية – قمة (الشيخ سيوه يل)[2] ، ثم من هناك نصعد متن نجمتك . .

– لكني ، يابابا ، لااستطيع المشي بعد الان . . . ابتاه ! ، لاتدع الطبيب يأخذني . . . انها تطيب ، وسوف تتماثل للشفاء من تلقاء نفسها . اليس كذلك بربك ؟!

– ولكن ياصغيري ان الطبيب هو ادرى منا علينا ان نلتزم بما يوصي به .

– اذن لن أرافقك . والنجمة ايضاً لاأريدها .

– انها كانت غلطتك يابني . غلطتك كانت . . .

– ابتاه ! الم تقل انت بنفسك ، ان في وسع الطائرة ، الوصول الى النجمة العالية ؟! . . اذن ، سوف اخبرها فيما لو سارت اليها ان تهوي بها من عليائها .

ابتي ! هل تعود بي غداً الى البيت ؟ انها لا تؤلم . . . لقد ألمتني كثيراً حينما انجرحت . . اما الان فانها لاتؤلمني . الم تقل انت بأننا اذا وصلنا الى (الكوكب العالي) فانها تندمل ، من تلقاء نفسه ، وتتماثل للشفاء ؟! ولماذا لم نذهب يابابا ؟!

أبتي ! يابتي ، خذني الان بين ذراعيك ، واحملني واصعد بي الى مشارف (الشيخ سيوه يل) .

عندئذٍ – من هناك سوف اسير على قدميّ بنفسي . .

أما قلت أنت بالذات : بأننا اعتبارا من هناك سوف لن نسير على اقدامنا ؟ ! وأننا مثلما تسبح الاسماك في الماء هكذا نمشي ؟ ! ألا نختنق ؟ ! .

قل لي يا أبتي : ألا تؤلم الأسماك ارجلها ؟ ! .

ولماذا حين يرمي (خضر رەش) قنينة البارود في (البركة[3] الصفراء) ترى الاسماك بعدها ، لا تستطيع السير ، فتستلقي هكذا مثلي – على ظهورها فوق سطح الماء ؟ ! .

أبتاه ، ثم انها لا تمتلك حتى الاجنحة ، كي تصفق بها وتطير ، لتحط الى جوار «النجمة العالية» . .

أما أنا فلو – كان لي جناحان لكنت الان اطير هكذا ، وأذهب . أو تأخذني بنفسك يابابا الى رأس (الشيخ سيوه يل) ؟ ! . ها ، بابا ؟ ! .

– اجل يا ولدي .

– ومتىٰ ؟

– الان . . الوقت ليل . سنذهب غدا مبكرين .

– أبتاه ، الا تمنع الاطباء من أن يأخذوني ؟ ! .

– بلى أمنعهم يا ولدي . . غدا في وقت مبكر ، وقبل أن يحضر الطبيب ، سأحملك على حاركي ونغادر . .

سنصعد من السكة الرفيعة التي على جانب (نبع الحوريات) .

هل سبق لك ، وأن شاهدت الطريق ؟ !

إنها طريق صاعدة زلقة جدا ، غير انني لكثرة ما استطرقتها في تنقلاتي ، ملمٌ بها شبرا ، شبرا ، عارفٌ بصخورها ، صخرة صخرة . . فيما مضىٰ حينما كنت صغيرا ، كان ابي كلما استبدّ بي التعب ، وأجهدني السير ، يضعني فوق حاركه ، ومن ثم يتقدم الى الامام . كنت اذاك اتملىٰ على هواي جوانب الطريق ، وأمتع نظري كما يحلو لي دون أن ينتابني الخوف من الانزلاق ، أو السقوط . كانوا يقولون لابي : «انزله من على كاهلك يا رجل ، كي يسير على قدميه بنفسه . . انه ليس طفلا» .

وقتها كنتُ في مثل سنّك الان . كنا دائمي التنقل فيما بين المناطق السهلية الحارة ، والجبلية الباردة .

احيانا كان يصادف ان يطول بنا المسير الى ان يخيم الظلام .

ابي كان قويا جدا . في كل مرة كان يبادر الاخرين بقوله : «ألا ايها الشباب ! بالله عليكم دعوا الخجل جانبا . لو أصاب احدكم الاعياء ، وخانته قواه ، رجلا كان أم امرأة ، فأنني على اهبة الاستعداد ، كي احمله على كتفي ، الى حيث يشاء» . كثيرا ما كنت استمتع بغفوة لذيذة ، وأنا محمول على ظهره . . . مرة ، وأنا غارق في النوم فوق حاركه ، اذا بي أنتفض اثر صفق جناحي احد السمانيات .

لكم تمنيت لو أرفرف مثل ذلك الطائر بجناحي ، فانحدر صوب (وادي[٤] الجان) الاخضر العميق .

أبي قال : «يا بني انك لست بطائر السمانى[٥] . سوف تتهاوى ، وتسقط . فتتهشم ، وتتبعثر اشلاءاً» .

ولحد الان ، حينما أحلم ، استحيل طائرا سمانيا ، وبرفة من جناحي أنحدر الى عمق الغابة من علياء القمة .

لكنني حالما اتذكر قول أبي ، ينتابني الخوف ، فيهبض جناحاي ، وأتهاوى ، ومهما أحاول وابذل ، فلا تلمس قدماي الارض ، الى أن استيقظ مذعورا . .

أما أنت يابني ، فلا تخف ، وكن مطمئنا ، لأنني سوف لن أتخلى عنك ، وسأظل ممسكا بك ، وأحميك من السقوط .

اننا في هذه المرة ، سوف لن ننحدر صوب (وادي الجان) ، وانما يكون مسارنا بأتجاه كوكبك بالذات . .

أليس هذا حسنا يا ولدي ؟ ! .

ندت منه التفاتةٌ الى ابنه .

فصل برفق ، كاهله عن حافة السرير الابيض الذي يرقد عليه ابنه ، ثم مدّ عنقه متطلعا ، ورنا اليه ، وهو متقرفص .

كان هو مغمض العينين ، ثمة بسمة ساخنة كانت طافية على اساريره ، تشبه في صفائها ماء (نبع الحوريات) الرائق جدا ، اذ يكتسح من طريقه الثلوج المتراكمة ، أيام زمهرير كانون القارس . وهو ينحدر صوب (البركة الصفراء) .

قال في نفسه : --

– تُرىٰ لو علمت أمك بهذا الخبر ، ماذا تفعل بنفسها ! ؟ . . وبأي وجهٍ أعود بك الى القرية يا صغيري المحبوب ! ؟ .

وهل تقوى ركبتاي بعد على حملك فوق حاركي لأصعد بك ، واوصلك الىٰ قمة (الشيخ سيوهيل) ! ؟ . . . لا . . . لم يقدر لأمثالنا أن يعيشوا دون سيقان ! . إننا لسنا بأشجار (وادي الجان) ، ولا بالاسماك ، أو طيور السمانيات أيضا . حين لفه الصمت ، لم يكن يتناهى الى سمعه سوى هدير محركات السيارات المسرعة . أسند ظهره الى الطبلية ، فألصق ركبتيه بصدره ، ثم أطبق عينيه : «غدا أحزم أمري مبكرا ، ولسوف أحملك ، ونواصل السير . لا نعوج على القرية ، بل نسلك السكة الرفيعة ، ولا نتوقف الى أن يستقر بنا المقام فوق هامة (الشيخ سيوهيل) . واذ تسدل الظلمة ستارها ، ليبزغ كوكبك الصغير . هذه المرة لا يكون بزوغه من فوق قمة (الشيخ سيوهيل) ، وانما أبعد بكثير . عندئذٍ تبادرني فتقول : فلننطلق اليه وثبا . انك لا تفكر في (وادي الجان) ، كم هو عميق ، بعيد الغور ، ومخطر ؟ ! . انه الليل . مظلمةٌ هي الدنيا . لا يبين له من أثر . وأنا أتذكر كلام أبي ، فارجع القهقرىٰ ، وأنت تتخيلني بغلاً ، فتنطّ ، وتثبُ ، ثم تهمزُ خاصرتيَّ بقدميك ، لكي أتقدم بك الى الامام .

لحظتئذٍ ، أنسىٰ مقولة أبي ، فتنبجس في عروق أجنحتي دماء السمانيات . لا أنظر الى الاسفل ، بل استجمع باصرتي ، فأُحدّقُ في كوكبك الصغير ، ثم اقفز بخفة ، فأرتفع مثل العنقاء . عند انطلاقتي الاولى ، ينبغي ألا اتذكر مقولة ابي ، وألا اسقط ، والا انتفض من نومي مذعورا . سأخذك ، ولن أتوقف ، حتى تلامس بيديك كوكبك الطالع . ان ابي لم يعلمني الطيران . أما أنا فينبغي علي ان اعلمك كيف تطير ، لان قلبي لا يطاوعني في ان اراك ، وانت مضطجع مقعد طوال حياتك . اننا معروفون اباً عن جد بكوننا نلفظ أنفاسنا الاخيرة ، ونحن وقوف . لا اطيق رؤيتك وأنت مقعد ، تستلقي على جنبك أكثر من هذا . حينما تحرك لسانك لأول مرة بالنطق ، واذ كنت تطلب مني شيئا ، فأتلكأُ في احضاره لك ، كنتَ تقول مجتجاً : إنني لن اصبح ابنك بعد الان . فلِمَ – الان – أنت صامت هكذا ، لا تنبس يا قسمتي ؟ لست ادري كيف اطبقتَ جفنيك ، ونمتَ في هذه الليلة دون أن تقرّ عيناك برؤية النجمة العالية ؟ .

ها أنت وعلى مدى صيفين ، أو ثلاثة ، والى أنْ يستبدّ بجفنيك الكرىٰ ، فتنام ، وأنت مضطجع فيما بيني ، وبين أمّك ، تظلّ تحدثني بأستمرار عن النجمة العالية ، وكيفية الوصول اليها . لست ادري لماذا شُغفتَ بها وحدها من دون كلّ تلك النجيمات ، والكواكب ، فملكتْ عليك قلبك حتى لكأنها ملكك الخاص ؟ .

اني لاشكُّ في أن يخطر ذلك الكوكب الذي هو لك ، حتى ببال

المنجمين ايضا ، ليعتمدوا عليه في حساباتهم عند قراءة طوالع الناس .

أيةُ حورية اسكنت قلبكَ الصغير ذلك الكوكب ، يا ولدي ؟ . فلو صدقوا ، وكان هو كوكبك الخاص بحق وحقيق ، لوجب أن يكون سامقا ، لايدانيه كوكب ، ولوجبَ ايضاً ، أنْ تكون أنت بمنأىً عن هذا البلاء الذي ابتليت به ، يا وحيدي .

واذ فتح عينيه ، كانتِ الدنيا مضاءةً بهالةٍ من النور الكثيف الابيض . لا الشمس كانت تتراءىٰ له ، ولا ايُّ شيءٍ آخر . ثمة امرأة متسربلة بثياب بيضاء كانت واقفة فوق رأسه ، تترقبه . بأبتسامة رقيقة بادرته : –

– لماذا لم تخبر الخفير كي يزودك ببطانية زائدة ، تنام عليها ! ؟ .

واذ تلفت حواليه ، فلمح ابنه ، تذكر الليلة الماضية . اراد أن ينهض على قدميه . أحسَّ بساقيه اللتين كان يتوسدهما ، وكأنهما قد فارقتا جسده .

ثمة لذعةٌ كاوية تصاعدت من أعماقه ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه . قالت له الممرضة : –

– ساقاك متخدرتان . . مدهما قليلا ، كي يزول عنهما الخدر . . كيف استطعت أن تنام وأنت في وضعية الجلوس هذه ، أيها المنكوب ؟ ! .

هيا . . اسرع ، يقول الطبيب : ان اول عملية جراحية تجرى اليوم هي لابنك .

– أيةُ عملية جراحية ؟ ! . . وهل تبترون ساقه ؟ كلا . . اذا لم يكن في مقدوركم معالجته ، فدعونا ، وشأننا . جزيتم خيراً ، إنني سوف اعود به من حيث أتيت .

– يا أخانا . . لقد تلوّث الجرح ، وأزمن ، وليس له من علاج آخر . فأن لم تُبتر ، فأنه سوف يموت .

– لا بأس عليه . . الموت أهون من ذلك . القىٰ بنظرة على ابنه . وضع راحة يده فوق جبينه . هو فتح عينيه . هذا قال : –

– يا (هەلو) . . قمْ يا بني ، لنبارح ، ونواصل مسيرنا على وجه السرعة . . فأذا قُيّض لي أن ابقى على قيد الحياة ، فسأوصلك – اليومَ – الى قة (الشيخ سيوەيل) ، قبل أنْ يخيم على الدنيا الظلام .

نيسان ١٩٧٩ .

الهوامش :

توخياً للدقة ، وبغية تقريب مضمون القصة من فهم القارئ الكريم ، أثرتُ ترجمة اسماء الامكنة الواردة في سياق القصة حرفياً وهي على التوالي : –

١ – كانى بەريان – نبع الحوريات

٢ – بيرسيوەيل الشيخ سيوەيل

٣ – كۆمەزەردە البركة الصفراء

٤ – كانى جنۆكان – نبع الجان .

٥ – السُمانىٰ : الواحدة : سمانة والجمع : سمانيات . طائر أصغر حجماً من الحجل . من فصيلة الدجاجيات : (سويسكه) .

القصة منشورة في مجلة (كاروان) (المسيرة) في العدد (٣) لشهر كانون الاول من سنة ١٩٨٣ .

تاريخ ترجمتها الى اللغة العربية / اواخر نيسان من سنة ١٩٨٦ .

●

صلاح شوان

١ – في قرية (مام رەش) بمنطقة (شوان) احدى ضواحي مدينة كركوك/ محافظة التاميم كانت ولادة صلاح الدين احمد خورشيد عام ١٩٤٧ .

٢ – تخرج من قسم اللغة الكردية بكلية الاداب/ جامعة بغداد ، بعدما أكمل الدراستيين الابتدائية ، والثانوية في مدينة كركوك .

٣ – بداياته كانت مع الصحافة ، حيث عمل فيها لصحف والمجلات الكردية ، مثل صحيفة (هاوكارى) (التضامن) ، وكذلك مجلتي (بيان) ، و(روشنبري نوى) (المثقف الجديد) الصادرتين بالغة الكردية ، وكذلك عمل في جريدةالوقائع العراقية .

٤ – عين مديراً للشؤون الثقافية في دار الثقافة والنشر الكردية .

٥ – وهو – الان – عضو في المجلس المركزي لاتحاد الادباء والكتاب في القطر العراقي ، لدورتيه الاولى ، والثانية ..

٦ – عرف شاعراً ، وقصصياً وصحفياً وناقداً حيث نشر عام ١٩٨١ اضمامةً من قصائده في ديوان سماه «حبيبتي ليست سحابة خريفية» ، بالاضافة الى نشره للعديد ن القصص على صفحات الجرائد ، والمجلات الصادرة بالغة الكردية .